من وراء البـــــحر

للدكتور محمد عوض محمد

عزيزي الريات

لقـد غادرت القاهرة وأنا حانق عليك ، غاضب ثائر . وكان مثلي كمثل هذا البحر — بحر الريفييرا — الذي مايرح هائجاً صاخباً . فاستحال عليّ أن أقضي الوقت في السباحة والاستحمام ، واضطررت أن أقطع الوقت في الكتابة اليك كما ترى .

أجل ! لقد تركت السواحل المصرية وأنا غاضب منك ، ولحسن حظك أن بيني وبينك هذا البحر الطويل المديد العريض ، وإلا نالك مني بعض الأذى . فانك حاولت في العـدد السابع والأربعين من « الرسالة » أن تفسد علي عيشي ، وتقطع عني الخبز الذي أتبلغ به في هذه الحياة الدنيا ،

وتفصيل الحديث — إن كنت لم تدرك بعد ماجريرتك — أنك في العدد الأخير — الأخير بالنسبة الى — حاولت أن تقطع عني وسائل عيشي ؛ بأن تناولت أفاضل الشعراء بالنقد الشديد . لا لسبب سوى أنهم اتخذوا لأشعارهم عنوانات اقتبسوها من بيئة غير بيئتهم وأرض غير أرضهم ؛ وقد تناولتهم من أجل ذلك باللوم ما شاء لك ذلك القلب القاسي الذي اتخـــذ جوانحك مستقراً ومقاماً .

وكأنما جهلت — يا أبا رجاء — أو تجاهلت أنني بحمد الله — الذي يحمد على الخير وعلى الشر — ما أكلت الخبز والملح (ومعهما — أحياناً — قليل من الجبن الدمياطي والخيار المصري) إلا بأمر واحد أؤديه في هذه الحياة ، وهو تعليم الناس تقويم البلدان . ولست أدري أدفعتني في هذا الطريق ملائكة الرحمة أم شياطين العذاب . لكنه على كل حال هو الطريق الذي سلكت ، والذي آكل منه الخبز والملح فكان الأجدر بمثلك لو أنك ترعى لي ودة عهـداً أن تشجع الشعراء على أن يقبلوا ما استطاعوا على تلك البيئات البعيدة ، والأقطار النائية ، يلتمسون فيها عنواناتهم وموضوعاتهم ، فيضطرون الى دراسة البلدان والأقاليم ، ويبحثون في أسفار الجغرافيا عن صفة كل قطر وكل ظاهرة طبيعية ، حتى اذا استوعبوا فهمها واستطاعوا الاحاطة بأسرارها سالت خواطرهم في وصفها قريضاً بديعـاً . . . وهكذا يصبح الشعراء والكتاب طلبة يدرسون علم تقويم البلدان ، ورسلاً لنشر الدعوة الجغرافية وبثها بين طبقات الأمة . وهكذا تروج بضاعتنا التي نأكل منها الخبز والملح ، ومن يدري ، فقد ينتهي بنا هذا الأمر أن نصبح قادرين على التنعم بأشياء غير الخبز والملح — مما نجهله الآن كل الجهل .

ان واجب الجغرافيا — يا أبا رجاء — هو أن تدني البعيد وأن تقرب أطراف العالم بعضها من بعض ، وأن تعلمك وأمثالك كيف تتخذون الناس كلهم سكناً ، وكيف تجعلون الأرض كلها داراً .

نريد لكم اليسر والسعة ، ولا نريد لكم العسر والضيق ، نريد أن يطلق سراح الكتاب ، وألا يتقيدوا بسلاسل المكان وأغلال الزمان ، فتنطلق أرواحهم في العالم الفسيح ، وتشرب من كأس الحرية حتى تروى وتشفى .

ان الجغرافيا هي علم الكون ، علم الوجود ، ولهذا كانت أهم ما في الوجود من علم . ولهذا وجب علي من كان مثلك — مهتته نشر الثقافة — ألا يقول كلمة واحدة تثبط همة المشتغلين بهذا العلم العظيم . .

لهذا أريد منـك أن ترجع الى الحق ، وان تعترف معي بأن « وراء الغمام » و « الملاح التائه » وما شابه ذلك عنوانات بديعة ، وأنه لايضير الكاتب الذي يستخدم مثل هذه العنوانات أن ليس في سماء القاهرة غمام كثير — مع أن في سماء الأسكندرية من الغمام ما يكفي لألف عنوان ! — كذلك لايضير على الكاتب أن

ونستطيع أن نلمح في الاحتفال الرسمي الذي يقام في أيامنا — احتفاء بالمولد النبوي الكريم بعض رسوم العصور الخالية ، وبالأخص بعض المناظر التي ينقلها الينا الجبرتي عن هيئة الاحتفال في أواخر العصر التركي ، ولكنا لا نستطيع أن نلمح فيه كثيراً من تلك الروعة التي كانت تطبعه في عصور المجـد والاستقلال ، ولا نستطيع بالأخص أن نلمس آثار ذلك الصـدى العميق الذي كان يتردد بين طوائف الشعب ويجعل من المولد النبوي الكريم عيداً دينيا وقوميا عاما يحتفي به الشعب بأسره .

محمد عبد الله عنان
المحامي

يتحدث عن البراكين وجبال النار، والزلازل، وأمثال تلك الظاهرات التي لا نحسها في مصر الا نادراً. ذلك لأننا معشر الجغرافيين نريد أن نبصر بثمار ما بذرناه من علم ونراها تؤتي أكلها في كل مكان.

هذا ما عنّ لي أن أقوله تأنيباً لك على أن حاولت أن تقطع عيشنا في هذا البلد الأمين. وأريد أن أزيد في التنكيل بك بأن أرسل إليك قصيدة كنت نظمتها في وصف «نهر في جبال الألب» فهي كما ترى لم تكتب عن نهر النيل. فاذا أردت أن تزمني في هذا، وليس هذا على جرأتك بعزيز — فاذكر أنني كتبت عن نهر النيل كتاباً كاملاً؛ قد أتعبني في النهار وأسهرني الليل أعواماً طوالاً. أما النهر في جبال الألب فما كان له مني سوى جلسة قصيرة جلستها بجانبه أراقب مجراه، وأصغي الى خريره وزئيره. لم يشهد له طرف، ولم يدمع له جفن.

وعندي أن الذين يبحثون عن موضوعاتهم في غير بيئتهم لا يضربون لنا مثلاً لما نسميه (الامتيازات) في الأدب؛ بل للاستعمار في الأدب. فما دام الأسلوب عربياً، والصبغة والنزعة عربيتين؛ فلن يضير الشاعر أن يفتش أرجاء العالم في سبيل البحث عن موضوعه، أو عن استعاراته أو معانيه. والذي قد يعاب على الكاتب العربي هو هذا الولع باصطلاحات غربية تبدو للعربي بادية السخف، مثل قولهم «كوبيد رماني بسهم» أو ما شاكل ذلك من الاصطلاحات التي لا طلعت ولا نزلت. وليست عبادة الغربيين مقصورة على شعرائنا بل هي كذلك شائعة في سائر الكتاب ورجال السياسة. فكل نغمة — مهما كانت سخيفة — مطربة لهم ما دامت خارجة من قيثارة غربية. وكل حكم نافذ ما دام صادراً من محكمة غربية. وأكبر عار على الأديب المصري أن يكون إلمامه بأدب الغرب أكبر من إلمامه بأدب الشرق.

* * *

والآن ما خطب تلك القصيدة التي أريد أن أثأر بها منك: والتي موضوعها «نهر في جبال الألب»؟ انها ليست من جليل الشعر ولا خطيره، ولكني ما دمت أرسلها اليك للتنكيل بك فلن أهتم بتنقيحها وتهذيبها. فها كها:

يحار لبي إذ أرى مَسيلَ هذا الجدول
وإذ أرى انحداره يسبق لَمْحَ المُقل
لا يستقر في السير لحظةً بمنزل
كأنه مُندفعٌ بالخوف أو بالأمل
أو سائر لغاية بعزمة لم تُفلل
ينقض في انسيابه مثل هُوِيِّ الأجدل
من مَدْفَع المدفع[1] وجندل لجندل
فاعجب لماء شبم يجيش مثل المرجل!
مصطخب مضطرب محتدم منفعل
وهائج في مائج ومدبر في مقبل
وعابس في ضاحك ومنجد في مسهل
وأول في آخر وآخر في أول
مستعجلاً وليس يخشى زلة المستعجل
وليس يُعييه المسيرُ في الضحى والأصُل
عليه من حبابه ثوب كأبهى الحلل
رذاذه مثل شرار ناره لم تشتعل
منتثرٍ منتشرٍ في السهل أو في الجبل

* * *

شلالهُ يهوى هُوى شُهب ليل أليل
كعمد من فضة أو كلألاء مُسدل
أو حائط من مرمر يلمع كالسجنجل
أو ذوب بلور هوى من حالق لأسفل
في صخب ولجب متصل منفصل
يكاد أن يُسمع من بالمشترى أو زحل!
زئيره يطغى على خريره المتصل
مثل زئير الأسد يخشى شدو كل بلبل

* * *

أصغي اليه صامتاً في هيبة ووجل
أسمع في خريره ذكرى العصور الأول
كأنه صوت الزمان من قديم الأزل
ينبئ بالماضي وقد يهمس بالمستقبل
سفر يخط الدهر فيه كل سطر منزل
من كل معنى مُذهل وكل سر مُعضل

* * *

يا ليت شعري إذ أرا . . في سراه المُنجل

(١) المدفع عند العرب هو حيث يندفع الماء بشدة ومن هذا (مدافع الريان) التي جاءت في معلقة لبيد